

الدراسات في «البناء»، أنشئت لتكون مساحة للابحاث العلمية المتعلقة بشتى المواضيع ذات صلة في قضايا الأمة والعالم العربي.

وهي إذ تتسع لمثل هذه الدراسات تبقى مجالاً مفتوحاً للحوار وطرح الإشكاليات الفكرية

## القومية بين التجديد والتعديل

# الماركسية إرث تاريخي... هل تملك شروط الإحاطة بالتطور التاريخي للأهم والوعي القومي؟

إن إحدى أهم النتائج التي ترتبت على سقوط الإمبراطوريات، كان تأكيد الوجود القومي كوجود حقيقي، لم تقوَ السياسات الإمبراطورية على محوه، فهذه هي القوميات تعود للظهور على مسرح التاريخ وتنهض من بين تفسخات الإمبراطوريات، لترسم مسارات عميقة الأثر في الاستراتيجيات الدولية، بل لتقود العالم بوحى المصالح القومية.

يقارب الباحث والمفكر محمد معتوق مفهوم الأمة والقومية من خلال نظريات متعددة، منها الماركسية – اللبينية والماوية ومساهمتها في خلق الحزب وصولاً إلى الوعي القومي المتجلي في القومية الاجتماعية. و«البناء» إذ تنشر هذه الدراسة القيِّمة فلأن تداعي الأحداث على مدى العالم عاد ليؤكد ويكرس الوجود القومي كوجود حقيقي يتجاوز مرحلة الاستيعاب الأممي التي حاولت فيها الأممية تسفيه هذا الوجود ونفيه كقوة محرِّكة للتاريخ.

ف«البناء» وانطلاقاً من هدفها في نشر الدراسات العقائدية والعلمية والفلسفية، تأمل أن تشهد صفحة الدراسات فيها حواراً عميقاً مسؤولاً وموضوعياً حول المرحلة التي تلت انهيار الأممية وعودة برون القومية كقوة فاعلة في صناعة التاريخ، والبحث عن أسباب هذا التحول بعد تطبيق النظرية الماركسية. اللبينية قرابة 75 سنة. إذ أن سؤالاً يطرح نفسه، وهو حول مابية القوة الاجتماعية (طبقة) التي نشأت في ظل المرحلة الشيوعية واستطاعت أن تهد البنيان الشيوعي وتعود بالمجتمع إلى الحالة الرأسمالية، هل هي المادية التاريخية؟! إن الإجابة على مثل هذه الأسئلة يوضح طبيعة فلسفة التاريخ وطبيعة القوى المحرِّكة له والتي تأتي القومية في مقدمها.

في هذا العدد، يعرض الكاتب مدارس ماركسية ومفكرين ماركسيين في مقاربة تمهيدية لطرح الفكر القومي في مواجهة الأسئلة الكبرى والتحوّلات العميقة.

### محمد معتوق

قياساً على تطور الطبيعة وأشائها، يدور حديث بدأ، منذ حزيران 1967، عن التطور في العقائد والأفكار، والتبدل في النظرة إلى العالم وحركته وظروف تحوله.

ومنذ أن تبنى حزب البعث العربي الاشتراكي (الشام) النظرية الماركسية في الاقتصاد والفهم المادي الديالكتيكي للحركة، ومنذ أن تحول القوميون العرب إلى منظمة اشتراكيين لبنانيين وحزب عمل اشتراكي عربي مبنيّين في المنظمة والحزب الاشتراكية العلمية وبذلك المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ومختلفين، في المنظمة والحزب، حول فهم الواقع العربي وقضية فلسطين ومسألة الوحدة العربية... منذ هذين الحداثين، وعديدين، كان لهم فضل كبير في تحول الحزب والحركة إلى الماركسية، يحاولون أن يدفعوا، بالأحزاب الأخرى التي لا تبني الماركسية أن تحذو حذو البعثيين والقوميين العرب.

وليس جزءً من عملنا، هنا، أن نتبين المخططات التي يسير هؤلاء الأفراد وفقها ونتبين هوية وأغراض واضعها وموقفهم من القضية القومية الشاملة. غير أن ما نريد في هذه الدراسة هو المقارنة بين ظروف تبديل الحزبيين الآخرين عقائدهما أو تطويرها والدعوة إلى توجيهها لبعض المفكرين لنقدتي بهم. كما نريد، هنا، أن نوضح الإشكالات الفكرية التي تحتم سوء فهم هؤلاء المفكرين للفكر القومي الاجتماعي.

وليس من داع للاسترسال في توضيح أن المطلوب من المفكرين، الذين ذكرنا، لا أن يحولوا الأحزاب الماركسية إلى أحزاب ماركسية بل أن يحولوا الأحزاب الماركسية، عينيها، إلى حزب ماركسي واحد، وليس يقبل استبعاد الفكرة أن يقال أن لأضر من تعدية المفكرين الماركسية وأن ذلك دليل على غنى الماركسية وقدرتها على استيعاب هذه الاختلافات. إذ أن الفكر الملتزم قضية شعب ملزم بأن يخرج إلى معنتقيه لإليات غناه أيضاً نظرية تؤكد ضرورة وجودهم في تنظيم حركي واحد.

هذا كلام يفترض أن يفعله الماركسيون السوريون، وبعضهم لبعض الآخر. أما ما نقوله نحن فيلغى الحاجة حتى إلى التنظيم الحركي الواحد المعتقد. أن ما نريد هذه الدراسة أن تبرهن عليه هو واحد: أن طريق أفضل للعالم هو القومية الاجتماعية التي وضع مسعاده أساسها الفلسفي، والحزب هو الأداة.

كان أبرز ما تكده البيان الشيوعي، في جملة الأمور التي عرض لها، هو أن دخول العلاقات الرأسمالية وتطورها في مجتمع ما يقودان إلى انقسام هذا المجتمع إلى طبقتين: البروليتاريا والبورجوازية. وأن البروليتاريا الحاملة عذابات المجتمع كله ستحرز هذا المجتمع مع تسلمها السلطة السياسية بنتيجة انتصارها في الصراع الطبقي الذي يحكم علاقاتها مع الطبقة البورجوازية.

وانقسام المجتمع إلى طبقتين أمر محتوم في رأي ماركس، إذ أن الطبقات المتوسطة لن تثبت أن تتساقط وترقد البروليتاريا مع تطور الرأسمال وتركز الإنتاج ونشوء الكاراتات. وكان ينظر إلى أي من المجتمعات الأوروبية على أنه المجتمع الأمثل للوصول الثورة الاشتراكية، ذلك لأن فراغ المجتمع إلا من طبقتين هما الطبقة البروليتارية والطبقة البورجوازية من البداية نحو صراع طبقي علني وصریح نتیجته مفروغ منها وهي تعني انتصار البروليتاريا.

ولم يقصر ماركس كلامه على طبقتي البورجوازية والبروليتاريا بل تعرض إلى الطبقات الأخرى فتكلم عن تذبذب طبقة البورجوازية الضغرى كما تكلم عن الفلاحين.

### هجاء الفلاحين

أما كلامه عن الفلاحين فقد سمي هجاء لهم، فهو من قال إن من فضائل البورجوازية العظمى أنها خلصت قسم كبيراً من السكان من بلاءة الحياة الرقيّة وحكمت شعوب الفلاحين بشعبية الرفق كما كان ماركس يصف الفلاحين بأنهم رجعيون وأنهم يلقفون دائماً إلى جانب البورجوازية على أساس أن أرضهم لا يملحونها إليه وهو الحصول على قطعة من البورجوازية منها وتوفر لهم الثروة والرفاهية، وكان ينصح بشدة بالابتعاد عن هذا الفلاح الذي يطالب بالحصول على قطعة من البورجوازية، بل إن ذلك يعني إهضام الثورة الاشتراكية وإعادة البورجوازية وايدبولجيتها إلى السلطة والسيطرة.

وتكاد على ضرورة إقصاء الفلاحين بالذات عن الحركة الاشتراكية تراجع ماركس عن فكرة الحزب الشيوعي (كتابات 1865، 1869) بحجة أن أي نظام حزبي مهم كان ثوريا لا يستطيع أن يستقبل البروليتاريا لمدة طويلة لذلك فعلى البروليتاريا أن تتناضل في النقابات. ووصف ماركس النقابات بأنها «مدارس الاشتراكية».

وبذلك فإن النقابات اعتبرت عند ماركس أكثر ارتباط بالعلم البومى من أي حزب آخر في وعاء

تناضل الطبقة العاملة وبذلك أيضاً أقصى الفلاحون في الرفق عن القدرة في المساهمة في العمل الثوري.

### لماذا إبعاد الفلاحين؟

لماذا أبعد ماركس الفلاحين عن الحركة الثورية؟

يسأل المطالعون لأصول الفكر الماركسي؟

لما لا شك فيه أن ابتعاد الرفق من المدينة ويؤثر الثقافة والمدينة يبقى الفلاحين في حالة من التمدن متخلفة عن حالة أهل المدن ويجعل الفلاحين في حالة من التمدن متخلفة عن حالة أهل المدن ويجعل الفلاحين مقصرين عن فهم التصور العلمي للعالم ومفرضين بالتالي عن دخول حركته لتطوره وتغييره.

# البناء

والسياسية وغيرها، تنشيطاً لدرج الثقافة في الصيرورة الاجتماعية.
علماً أن الآراء التي ترد على

مساحة الصفحة تعبر عن أصحابها وليست بالضرورة مطابقة لقناعات الصحيفة.

لأنه انطلاقاً من القناعة الراسئة بضرورة خلق حوار فكري حول القضايا والإشكاليات كافة وما

# دراسات 13

أكثرها، والتي تقرض نفسها على صاحب القرار والمتقف وقادة الرأي والمواطن في أي موقع كان، كانت صفحة الدراسات في «البناء» هي الترجمة العملية لهذه القناعة آلمين أن تشكل هذه الصفحة مساحة فكرية .سياسية تعنى بهوم الوطن والمواطن، تدرس الحاضر وترسم المستقبل.

## 1



لينين



اينغيلز



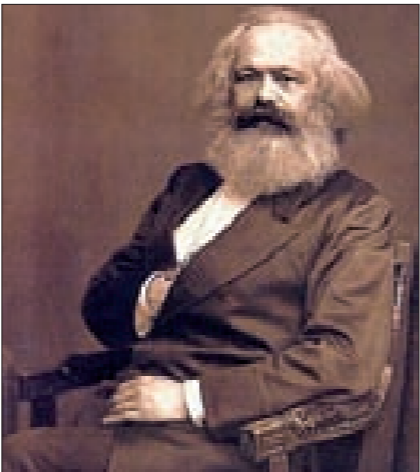
ميشال عفلق



تشاينغ كاي تشيك



ماوتسي تونغ



ماركس

بورجوازية وهي بذلك لا تعود وطنية. ويعتبر أيضاً أن البورجوازية في كل مكان من العالم الكولونيالي «سارت راضية النفس مطمئنة البال في طريق قتلع، مناقض لمصلحة الأمة، هو الطريق الذي تسلكه بورجوازية تقليدية، بورجوازية بورجوازية، بورجوازية ارتضت في غباء وحقق وحقلة أن لاتكون الإبورجوازية».

### الوعي القومي والولاء القومي

ويقارن قانون بين السورجوازية الكلاسيكية وبورجوازية المجتمعات الكولونيالية. فيعتبر أن جورالبورجوازية الكلاسيكية هو إقامة الدولة القومية الحديثة ونشر الوعي القومي والانتقال بالمجتمع

من الولاءات الطائفية والقبلية والعائلية والمنطقية إلى الولاء القومي. أما مع بورجوازية المجتمعات الكولونيالية، فالأمر يكاد يكون على العكس من ذلك. فالوعي القومي في هذه المجتمعات يعاني من ضعف. وكثيراً ما تنتقل البلدان المستقلة حديثاً من «حالة الأمة إلى حالة القبيلة، ومن مستوى الدولة إلى مستوى العشيرة». ويكون هم البورجوازية الحلول محل الأجناب والاستيلاء على أمتيازاتهم.

ويبين قانون بين الوعي الوطني والوعي القومي ويعتبر أن الأول ممكن في مرحلة الاستعمار وأن الثاني لا يكون إلا مع الدولة القومية الحديثة حيث الاقتصاد القومي الكامل يتيح نمواً متساوياً لكل عضوية الأمة.

الطبقة الثورية قد قانون في المجتمعات الكولونيهالية هي طبقة الفلاحين، ذلك أن البيئة الفلاحية في المجتمع المستعمر (يفتح الميم) هي البيئة الوحيدة التي تظل محافظة على أصالة تقاليدها وسلامتها بنهاى من كل شواشب الغزو الاستعماري والتلويث الاستعماري.

وبالرغم من ركود الفلاحين وانكماشهم وما يمكن أن يولدا من حروب قبيلة، إلا أن الجماهير الريفية تظل في عيوبتها اصباغية تصف بالفيرية. «أن الفرد ذائب هنا في الجماعة».

بمقارنة ذلك الكلام مع كلام ماركس نلاحظ أن هناك

خلافاً حول موضوعي الرفق والمدينة. فالمدن عند ماركس، هي المراكز الكبرى للإنتاج بينما هي، عند قانون، المراكز الكبرى للتلويث الاستعماري.

فالقانون يدعو الثوريين إلى «الفرار من المدن فرارهم من الثورة» (وهو رأي ريجي دوپيره، صديق غيفارا، أيضاً) بينما يعتبر ماركس أن أفضل حسسات البورجوازية أنها حررت قسماً لا بأس به من السكان من «بلاءة الحياة الريفية» وحكمت شعوب المدن بشعوب الرفق.

والمع قانون ترى كلاًما عن الأمة والوعي القومي والاقتصاد القومي والاصالة القومية وهي مفاظ غامبة، أو حاضرة في حالة موت، في تفكير ماركس وكتاباتهِ.

وإذا كان نال اهتمام لينين في العمل السياسي كان إيجاب مخطط الحزب البولشفي في الوصول إلى السلطة والانتقال إلى مرحلة «ديكتاتورية البروليتاريا»، وليس هنا مجال الكلام عن حنكة الرجل في تحقيق هذا المخطط بل الأهم من ذلك هو أن لم يراع في عمله السياسي بناء فلسفياً شيده لنفسه بل ترك للظروف الموضوعية والذاتية أن تقدم له مشاريع حلول كان دائماً يختار أفضلها.

### فانون: هجاء البورجوازية في المستعمرات

ينضل إلى فانون. فرانتز فانون الأفرقي. لم يعد العمال هم الطبقة الوحيدة التي تقوم بالثورة عند فانون، كما عند ماركس ولم يعد العمال الطبقة الثورية، فهو أيضاً لم يعتمد البورجوازية «الوطنية»،

بورجوازية المدن.

يشن قانون أشرس حملة عدائية ضد بورجوازية المدن. فهو يعتبر أن هذه البورجوازية هي بورجوازية عميلة للمستعمر وأنها «خبة قانورات المدن وصفوة نقاباتها في العالم الكولونيالي وهي إذ تتركز في المدن فإنها تركز في ذاتها كل الصفات المميزة للهجين، النقل، الخلاسي، من الظواهر التاريخية والتراكيب الاجتماعية».

ويعتبر فانون أن البورجوازية الوطنية مستحيلة

مكولة تاريخية في العالم الكولونيالي. فهي إما أن

تكون وطنية وبهذا لا تعود بورجوازية، وإما أن تكون

صناعياً فيتمهما بأنها تجعل الإنسان لا يتبين حاجاته الحقيقية ولا يميزها عن حاجاته المزيفة. ويقدم مثلاً الريف في أن يكون لسركثيرة سيارة بنفس فخامة سيارة زوجة صاحب العمل وأن يكون في متناولها نفس وسائل الراحة.

ويصف ماركيزون المجتمع المتقدم صناعياً بأنه كاذبة هي التي تقسر التضخم المرضي فيه للدعاية والإعلان وسائر وسائل الاتصال الجماهيري.

ويتحدث ماركيزون عن وهم الحرية. فالإنسان في المجتمع المتقدم صناعياً يقول أنه حُر لمجرد أنه حصل على الحرية في اختيار أسياده.

ولايطالب ماركيزون برفض اعتما التكنولوجيا فهو لايعتقد بأن التكنولوجيا قد استعبدت الإنسان وإنما هي أوجدت لأول مرة في التاريخ الإمكانية الواقعية لتحرر الإنسان.

### الحل: المنبوذون واللامتتمون

ولكن على من يعتمد ماركيزون في ثورته لتحرر الإنسان؟ لا يتكفي ماركيزون بأن يعلن أن الطبقة العاملة لم تعد عاملة التغيير الاجتماعي بل أن هذا العامل لا وجود له في المجتمع الرأسمالي المغلق. وإذا كان ثمة من أمل فهو معلق على القوى التي لم يتمكن المجتمع المغلق من دمجها: هي المنبوذين على مختلف أنواعهم واللامتتمين والعاطلين عن العمل والبطيقات والعروق والألوان الأخرى المستغلة التي لم تدخل أو لم يستطع المجتمع المغلق إدخالها في لعينهِ.

لماذا بقي من الماركسية الكلاسيكية التي نعرفها، مسألة مهمة جداً يجب التأكيد عليها في كلام ماركيزون: إن القول بأن تاريخ المجتمعات الإنسانية لم يكن حتى الآن لإتاريخ صراع الطبقات. وهو ما يتوج ماركس وتغلغل به بيانها الشيوعي. قد سقط. في الحلقة الماضية تكلمنا عن مساهما لنين وقانون وماركيزون في الفكر الثوري. وانطلقنا من فرضية أن لبنيين وفانون وماركيزون ماركسيون فرضناً لماركسية كل منهم وخلصنا إلى القول بأن لنين قد اخترق الماركسية بنظرية الحزب وادخل عنصر الفلاحين إلى الثورة، وأستردنا فكلنا أن لبنيين لم يكن يلمح إلى إنشاء فلسفة لبينية خاصة. وأن أجلى مظاهر ماركسيته بارزة في كتباته النظرية فقط. كما برهنا على أن فانون يصف الماركسية بمجرد أن أنشا للعالم الثالث ما اتفق على تسميته «مانيفستو» العالم الثالث وأن ماركيزون جاء ليهجز على ما تبقى من الماركسية وهي الإدعاء بأنها من المجتمع الرأسمالي الصناعي المتطور وله. فكان معظم كلام ماركيزون تأكيدات على تلف الطبقة العاملة في المجتمعات الصناعية وعدم جدوى الاستدال إليها في العمل الثوري.

لكن يختلف المفكرون بشأن الفكر الماوي فيمنهم البعض ماو بأنه قوي على حاول الاستفادة من منهج الماركسية التحليلي ليصل إلى تحقيق الوحدة الأوروذكسية تطورا خلاقا مبدعا.

غير أنه مع هذا الفريق وذاك يبقى ماوتسي تونغ مجدداً وصالح مفولات غربية عن الماركسية وأن كان أحد الفريقين يعتبر ذلك عملاً تحريفياً والآخر يعتبر إبداعاً.

غير أنه مع هذا الفريق وذاك يبقى ماوتسي تونغ مجدداً وصاحب مقولات غربية عن الماركسية وأن كان أحد الفريقين يعتبر ذلك عملاً تحريفياً والآخر يعتبر إبداعاً.

ولا يقتصر الخلاف على دائرة المفكرين بل هو يتعداه إلى دوائر التنظيمات السياسية العاملة في جميع أمم العالم. فالماوية تهمة بوجهها الشيوعيون «للمحرفين قوما» كما هي التروسكية تهمة توجه للمنتقدين ستالين ومرحلة حكمه وأساليب عمله هو

<sup>[1]</sup>